أ.د. الشيخ عبدالله بن صالح العبيد
عضو مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية

ضرورة الحوار ونشر ثقافة التجديد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين، وبعد:

أول ما يتبادر الى الذهن عند الحديث عن أي موضوع التأمل في معاني المفردات واستحضار المضادات إذ بضدها تتبين الأشياء. والحوار والتجديد يقابلها الصمت والجمود وإذا كان من السهل توقع نتائج الصمت والجمود فإن نتائج الحوار والتجديد تحتاج الى المزيد من الفرضيات والاحتمالات، وتحتاج ممارستهما الى الكثير من الالتزام والانضباط، فالصمت سكون، والحوار إسماع واستماع. والجمود بقاء ما كان، على ما كان والتجديد فعل وتفاعل وأخذ وعطاء.

الحوار منهج للتفاهم والتعاون وتداول الآراء والأفكار، وبذلك فهو وسيلة من وسائل الاتصال بين البشر، وطريقة من طرق التفاهم فيما بينهم، يهدف الى الإقناع بفكرة، أو اتباع طريقة. كما يهدف الى حل مشكلة، أو تحليل معضلة، أو الانخراط في منظمة أو منظومة، أو احتواء قضايا خطيرة أو مخاطر مزعومة. وتبعاً لذلك فإن للحوار أهدافه، وغاياته، منها ما يُعلن ومنها ما يُخفى. كما أن للحوار ضوابط وقيوداً وللمحاور صفات وشروط.

وليس ثمة محاور أو حوار إلا من أجل تحقيق أهداف وغايات ومكاسب مشتركة يلتقي عليها الطرفان أو الأطراف المتحاورة.

والأمر بهذا الاتساع يحتاج الى كثير من البحث، ويستدعي المزيد من الاستطراد وبخاصة في عالم اليوم الذي تحكم العالم فيه تكتلات دولية ومنظمات إقليمية ومصالح شعبية، وتربطه قوى اقتصادية، وأهداف تنموية، وتتنازعه فيه الوسائل الإعلامية والعلمية والثقافية وتتوازعه قوى فكرية ودينية وسياسية.

الحوار في اللغة العربية مشتق من الحور، وهو الرجوع. والحوار بهذا الاشتقاق يعني مراجعة الكلام، ويعني منه ما يتعلق بالمناظرة والمجادلة بين طرفين أو أكثر للوصول الى مفهومات مشتركة، وحلول لقضايا معينة، وهذا أمر مطلوب وعمل محمود وسلوك مشكور، ولكن إذا خرج عن هذا الهدف ومن هذا الطور أصبح جدلاً مذموماً وسلوكاً ممقوتاً.

فلغة الحوار هي اللغة الأولى في عالم أصبحت فيه لغة الثقافة والإعلام تسبق لغة السلاح والكفاح. نحن نعيش في عالم صار يستخدم لغة التحرير بدل الاحتلال، ولغة الاستثمار بدل الاستعمار، ولغة التعايش بدل التناجش. وقد طال الحوار جميع مناحي الحياة. له أدبياته ومدارسه وأساليبه ومناهجه. يرتفع أداؤه بارتفاع المستوى الحضاري للمشارك فيه، وينحدر بانحدار لغة التخاطب وفقدان الدليل والحجة والمنطق.

وليس المقام هنا مقام السرد والاستقصاء في مجالات الحوار ولكن مقام القصد والاقتصار على ما يتعلق بالجانب الديني منه.

فالحوار في الإسلام وسيلة من وسائل الدعوة والبيان والبلاغ التي أمر الله بها نبيه محمدا(ص) بقوله: ﴿ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [١].

وقوله: ﴿بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما انزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ [٢].

وقوله: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته﴾[٣].

ولا شك أن الدعوة والبلاغ والبيان كلها تقتضي الأخذ والعطاء، والاستماع والرد، والشرح والإيضاح، ولا يلزم من ذلك الاقتناع والقبول، ولكن إقامة الحجة في البلاغ والبيان. ومعلوم أن متطلبات الدعوة والبلاغ والبيان لا تنتهي بكلمة تقال أو موعظة تلقى أو كتاب يؤلف إذ لا بد من قناعة المدعو وقبوله وفهمه للإسلام ولا مجال في قبول الإسلام للمساومة والقبول بجزء منه وإنكار جزء آخر، لأن الأمر يتعلق بالعلاقة مع الله أما فيما يتعلق بمصالح العباد ومعاشهم في هذه الحياة فالمسلم مأمور بالبر والإحسان لجميع البشر كما قال تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾[٤].

وبصرف النظر عن أهداف الآخرين ووسائلهم لتحقيقها ما لم تكن قتالا في الدين، أو إخراجاً من الديار فإن معالجتها تكون بالتفاهم والتعايش والحوار ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا و لا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[٥].

وإذا كان ذلك إطار التعامل مع المخالف في الدين فكيف الشأن مع المتفقين فيه والخلاف بينهم هو في إطار الاجتهاد داخل دائرة الإسلام. لا شك أن دائرة الخلاف والحال هذه أضيق وأن المعالجة أيسر وأسهل، وذلك لأن الصفات التي أوجبها الخالق سبحانه في حق المخالف في الدين أنها في حق المسلم أوجب وألزم.

ومن هنا تبرز أهمية الحوار وضرورته بين المسلمين كما تبرز أهمية معايشة العصر من خلال نشر ثقافة التجديد، ذلك ان الانغلاق على الماضي والانكفاء على الذات يؤديان الى الجمود والركود مما يعيق مواكبة العصر، والعمل على تحقيق العزة والنصر لجمع الكلمة ووحدة الأمة.

ولعل من المهم في إطار مناقشة العلاقة الإسلامية الإسلامية التركيز على بعض

المسلمات التي تقوم عليها الحياة في المجتمع المسلم، والتي يجب أخذها بعين الاعتبار عند دراسة أحوال المسلمين في محاولة لتشخيص أسباب الفرقة والاختلاف فيما بينهم، والعمل على تحقيق عوامل الوحدة والاتفاق بين صفوفهم. في سبيل ذلك يجدر بالمسلمين تحقيق بعض الأمور المسلّمة في دينهم والتي يجب أن تقود فكرهم وسلوكهم وهي أمور تتعلق بوحدة الأمة ومنهج الوسطية والسنن الكونية والعلاقات بين الأسرة البشرية وطبيعة الخلافات المذهبية ويمكن إجمال هذه الأمور بالآتي:

أولا: أن المسلمين أمة واحدة، وهم يد على من سواهم: ﴿بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله﴾[٦]، ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[٧]. وأن النصرة بينهم واجبة، وأن مناصرة الأعداء وموادتهم مخالف لدينهم. وأن من صفاتهم أنهم ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[٨]. وأنهم ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[٩]. وأن ﴿لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون﴾[١٠] فلا يجوز للمسلم أن يذل نفسه أو يذل المسلمين. وأن عليهم أن يعدوا العدة التي تعزز وحدتهم، وتحول دون تسلط عدوهم أو اختلال صفوفهم وفساد ذات بينهم ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾[١١] وأن من صفاتهم أنهم ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾[١٢].

وأن «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وأن «المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» وأن «المسلم

أخو المسلم لا يخذله ولا يظلمه ولا يسلمه كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» وأن من صفاتهم أنهم ﴿لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما – والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾[١٣]. إنها بعض الصفات التي تستجيب لأوامر الله ونواهيه، وتحسب لليوم الآخر حسابه يوم تلقاه ﴿يوم لا تغني نفس عن نفس شيئاً﴾ ﴿يوم لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ ﴿يوم تُجزى كل نفس بما كسبت﴾ . ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ ﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾، ﴿يوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾ ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ يوم الدين، يوم التلاق، يوم الفصل ، يوم الجمع، يوم الحسرة، يوم التغابن، وقد بلغ الله هذه الرسالة وختمها بقوله ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ وحمل المسلمين مسؤولية بلاغها الرسول الكريم(ص) بقوله: «بلغوا عني ولو آية، فرب مبلَّغ أوعى من سامع» ولا شك أن العديد من مشكلات الأمة الإسلامية اليوم يعود الى ضعف أو فقدان بعض هذه الصفات في صفوف بعض المسلمين، وبخاصة من يتولون تسيير دفة الأمور ويوجهون حركة التعامل مع الجمهور، والجدير بأمة الإجابة أن تستجيب لأمر الله فالله عزوجل يقول: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾[١٤]. والله عزوجل يقول: ﴿استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من الله من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير، فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ، وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾[١٥].

ثانيا: أن دين الإسلام دين الوسطية فلا غلو فيه ولا تطرف وأن الله لا يكلف نفساً

إلا وسعها ولا يكلفها إلا ما آتاها كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ وكما قال عليه الصلاة والسلام: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وكما في قوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من قبلكم بالغلو في الدين». وقوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار».

الوسطية فهم وإدراك، ومعرفة وتعامل على أساس من الوعي العميق، والتفكير الرفيع، والفهم المستنير للسنة وللذكر الحكيم، وأن يكون ذلك مقياس الرفض أو القبول للرأي الآخر والفكر المخالف.

الوسطية موقف حضاري مع النفس ومع الغير، وهي حلقات وصل للمعرفة وتواصل بين حملتها. الوسطية حماية عن التباعد والتنافر ومساعد على التقارب، الوسطية وسيلة لجذب الأطراف الى نقاط الالتقاء والابتعاد عن التقاطع والجفاء.

الوسطية لسان الميزان. وسط بين الرفض المطلق والاستجابة المندفعة والعاطفة غير المنضبطة.

الوسطية هي العدل بين التفريط والإفراط، بين التساهل في الأداء والتشدد فيه ومع ذلك فالوسطية لا تعني بحال من الأحوال الذوبان بين الحلال والحرام أو الرخص والعزائم، أو المصالح المرسلة وسد الذرائع. كما أنها لا تعني تمييع الإسلام أمام المتغيرات والضياع في هذا الطوفان من العنفوان في عالم لا يكاد يستقر على حال. بل إنها تعني القيام على المتغيرات التي ترتكز على الثوابت، والأخذ بالمتغيرات مع المحافظة على القيم والثوابت. ذلك أن الخلل إنما يكون عندما يحصل الاخلال بالتوازن بين المعتقدات والقيم الثابتة وبين الأهواء والشهوات والعوامل المتغيرة. إن الإخلال بهذا التوازن هو الذي أفقد البشرية ميزان العدل الذي قامت عليه السموات والأرض وحكمت به أعمال

الدنيا والآخرة وأرسلت من أجله الرسل وشرعت من أجله الشرائع.

ولا شك أن الاستجابة تتطلب ربط المتغيرات الدنيوية بالثوابت الدينية وعمل الدنيا بمعطيات الآخرة وحسابات الدنيا بحسابات الآخرة. والوسطية عامل هام من عوامل عدم الاقتصار على جانب من هذه الجوانب وتجنب سيرة أولئك الذين ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[١٦]. وأولئك الذين شددوا على أنفسهم فأصبحوا سجناء الصوامع والديار. الوسطية هي الاستجابة للحياة والأمن والاستقرار والاستماع والقبول لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾[١٧].

ثالثا: أن لله سننا كونيه وإرادة ماضية ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ وأنه خلق الخلق فمنهم كافر ومنهم مؤمن ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾[١٨]. ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾[١٩]. وربط بعض الأسباب بالمسببات ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وأن مهمة الناس البلاغ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ وأن ﴿الله ينصر رسله والذين آمنوا﴾ ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ و﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ وأنه ﴿يعز من يشاء ويذل من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير﴾ وأنه ﴿لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ وأنه ﴿لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا﴾.

رابعا: أن الأصل في العلاقة بين البشر أنها تقوم على السلم والسلام وليس على المواجهة والعدوان، وأن تلك شريعة الاسلام وأن ما يسمى صراع الأديان ليس من

الإسلام في شيء، فالاختلاف في الدين ليس مبرراً للحرب والقتال، كما أن الكفر ليس مبرراً لإزهاق الأنفس ﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾. بل مبرر ذلك الدفاع عن النفس ورد العدوان ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين﴾ ويقول عليه الصلاة والسلام «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» تلك مقولة ومنهج من أرسله ربه رحمة للعالمين ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[٢٠] ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾[٢١]. يقول(ص) «الراحمون يرحمهم الرحمن» لا شك أن مرجع الصراع بين البشر ناتج عن انحرافهم عن منهج الله وصدق الله العظيم حين يقول: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ وحين يقول ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[٢٢]. إن على من ينتمون الى الدين ويتحدثون باسمه أن يلتزموا أوامره ويتجنبوا نواهيه فإنه عز وجل يقول: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾. وقد أرسل الله عزوجل رسله وبعث أنبياءه وأنزل كتبه لجمع كلمة الخلق وإتمام كمال الأخلاق فقد قال(ص): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وأسوأ الأخلاق مخالفة هدي رب العباد الذي بين للناس هديه وطالبهم بالتزام شرعه بقوله سبحانه: ﴿يا ايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول﴾ وقوله: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾[٢٣]. وقوله: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾[٢٤]. وحدد لهم المرجعية في الخلاف بقوله: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾[٢٥]. وبين لهم أن ذلك أصل في الدين ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا

الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾[٢٦]. وبين أن معظم أسباب الخلاف يقوم على حب الزعامة والسيطرة والهيمنة وليس الى الجهل ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضي بينهم وأن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾[٢٧]. ما ذلك إلا بسبب التحريف الذي طرأ على الشرائع نتيجة الأهواء ولذلك أمر الله سبحانه خاتم أنبيائه – والأمر له أمر لأمته – أمره بحمل رسالة الإسلام كما جاءت من عند الله والاستقامة عليها، وتجنب الأهواء في فهمها وتبليغها، والقيام على تحقيق العدل بين الناس، والعدل كما هو معلوم لا يقوم إلا على النزاهة والصدق والتجرد ومعرفة الدليل قال سبحانه وتعالى: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾[٢٨].

خامسا: إدراك أن المذاهب الإسلامية قائمة على أصول شرعية وقواعد فقهية تعتمد في فهم الأمور العقدية والفقهية على كتاب الله عزوجل وما صح من سنة نبيه محمد(ص)،وأن الخلاف بين علماء وأئمة هذه المذاهب لا يخرج من الملة ولا يستوجب الفرقة، وأن جل ما حصل من خلاف بين المسلمين يعود لأمور على رأسها المصالح العرقية أو القبلية أو السياسية أو الثقافية وليس مرده الى الاختلاف في الدين الذي ذمه الله سبحانه وتعالى وحذر منه بل مرد ذلك الى قلة العلم في الدين. وما حصل ويحصل من شذوذ من بعض المنتمين الى بعض المذاهب لا يمكن تحميله على المذهب أو الدين وبالتالي فإن التعبير بالتقريب بين المذاهب الاسلامية أمر يحتاج من المسلمين الى إعمال نظر ودقة تعبير، فهل يملك أصحاب مذهب أن يغيروا في أصول وقواعد مذهبهم إذا كانت قائمة على كتاب الله عزوجل وسنة رسوله(ص)؟ لا شك أن ما حصل من

اختلاف بين متقدمي أي مذهب ومتأخريه لا يعني تغييرا في المتقدم وتخطئة له بل هو اجتهاد مرده مستجدات العصر.

إن المذاهب الإسلامية معطيات علم وثقافة ومعرفة وزمان ومكان وليس العيب فيها ما دامت قائمة على الكتاب والسنة ولكن العيب في المسلمين الذين يسقطون عجزهم الحاضر وعدم قدرتهم على مواجهة مشكلاتهم وحلها وفق شريعة الله، يسقطون ذلك على مذاهب نشأت في ظل ظروف معينة وهو إسقاط ناتج عن الجمود وعدم التجديد، وقد يكون السبب الرغبة في الاحتفاظ بمكاسب شخصية أو إقليمية أو عنصرية على أساس من الدين. والدين منها براء. الدين براء من حدوثها ومن نتائجها وبالتالي فلا يمكن أن تعلق عليه أو على مدارسه سلبياتها. إن أقدس ما لدى الأمة هو دينها، وهو أهم ما تجب المحافظة عليه لأنه قوام عزتها ونجاحها ونجاتها، وان كان هناك من استغله في الماضي بتحريف النصوص ولي أعناقها لتحقيق مصالح سياسية أو شخصية فلا يمكن اعتبار ذلك مذهبا فقهيا يقوم على ما تقوم عليه المذاهب الفقهية من أصول وقواعد بل هو رأي شخصي يمثل سلوكاً فرديا منحرفا لا يتحمل المسلمون فضلا عن مذهب من مذاهبهم نتائجه.

هذا من جانب ومن جانب آخر فإن نشأة المدارس والمذاهب الإسلامية كان في نطاق محدود زمانا ومكانا ومصادر معلومات، وقد طرأ تغيير كبير وكثير على تلك الظروف حيث تغير الزمان واتسع المكان وتطورت مصادر المعلومات وتوثيقها وحققت الأمة في سبيل ذلك الكثير من الإنجازات، هذا من جهة ومن جهة ثانية خرجت أجيال حديثة درست على منهج علمي جديد لا يقوم على أصول وقواعد مدرسة إسلامية معينة أو مذهب فقهي محدود، ومن جهة ثالثة قامت مجامع ومجالس علمية فقهية مثل مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي والمجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي والمجالس الفقهية الإسلامية في أوربا وأمريكا. وهي مجالس ومجامع تمثل العديد من المدارس والمذاهب الفقهية وما يصدر منها لا يمثل كذلك مدرسة

معينة أو مذهبا محددا. وثمت مستجدات أخرى على الساحة الدولية والإسلامية غلبت الهيمنة السياسية على الهيمنة المدنية وبالتالي تم استغلال الخلاف الواقع في دائرة الاجتهاد بحيث تم توسيع مساحته لتطغى على دوائر الاتفاق. كل ذلك يدفع الى إعادة النظر في تحديد بؤر الاختلاف في كيان الأمة وأدوات التفريق بين صفوفها وألاّ نحمّل المذاهب الفقهية الضعف العام الذي يعاني منه كيان الأمة أو الضعف الخارجي الذي يعاني منه أفرادها.

بعد استعراض ذلك كله من خلال هذه المسلمات الخمس التي كما سبق تحكم وحدة الأمة الإسلامية وضرورة الالتزام بمنهج الوسطية وفق سنن الله الكونية وطبائع العلاقات بين أفراد الأسرة البشرية ومنهجية الخلافات المذهبية بعد ذلك كله يتبين أن العمل من أجل مواكبة العصر وتحقيق جمع الكلمة ونبذ الاختلاف والفرقة يتطلب نظرة كلية ومستدامة تعتمد على رؤية شاملة تُبنى عليها النظم والسياسات وتنطلق منها التطبيقات، يستشعرها القائد والموجه والمنظم والمنفذ والمستهدف إمتثالا لقول الله عزوجل في كتابه الكريم بالأمر الواضح الصريح حين قال سبحانه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وقوله ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم﴾ آيتان كريمتان تمثلان صراحة الأمر وصراحة النهي. وكم يجدر بالمسلم أن يقف متأملا دقة التعبير في الاعتصام بحبل الله فالكلام لخالق الانسان الذي هو أعرف بحاجاته ومتطلباته. والحديث عن وحدة الكلمة ووحدة الهدف ووحدة الصف كما هو حديث عن ضمان النتيجة بالهدي الى صراط مستقيم هو كذلك حديث عن القوة التي تجذب الإنسان الى المصادر التي تجنبه الزلل وتحفظه من الخطأ، وتشد أزره وتخفف إزره. إنها حبل الله وحبل الله دوحة تنتظم فيها عوامل الوحدة والمحبة والتواصل. فيها الارتباط بكتاب الله عزوجل وسنة رسول الله(ص)، وصلة الأرحام، وطاعة الوالدين، وطاعة أولى الأمر، والتزام جماعة المسلمين ومحبة المسلم، والبر والعدل مع غير المسلم، وإكرام الجار، أيا كان الجار. في الاعتصام بحبل الله الخير كل الخير والوقوف سداً منيعاً أمام

الشر وكل أوجه الشر. وفي الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق فيه ربط عرى التجديد بمصادر الوحي والتلقي وتعميق مسائل ووسائل الحوار بالبحث عن الحق والعدل وتكامل الرؤى والتجرد في البحث عن الدليل والإخلاص والصدق في تحقيق هذا السبيل.

والاعتصام بحبل الله بهذه المعاني السامية والرؤية المتكاملة التي تسعى الى جمع الكلمة ونبذ الاختلاف والافتراق ومواجهة المسؤولية الفردية والجماعية وعدم الاسقاط على الزمان والمكان والتاريخ وتحمل النتائج الدنيوية والأخروية المترتبة على المسائل العقدية والسلوكية. إن الاعتصام بحبل الله في إطار خوض الحوار وخوض التجديد والابتكار يقتضي من المسلمين العديد من الأمور التي من شأنها توفير البيئة الصالحة لتعيش فيها هذه القيم النافعة والتي على رأسها:

الأول: تقوية الروابط العقدية بحيث لا تشوبها أية شائبة فحبل الله هو شهادة ألا اله إلاّ الله فلا بد من صفاء العقيدة وسلامة المعتقد على ما أراده الله سبحانه وتعالى بما أوجبه في حقه وما وصف به نفسه سبحانه وتعالى.

الثاني: متابعة رسوله(ص) على النهج الذي سار عليه وسار عليه صحابته رضوان الله عليهم والسلف الصالح من هذه الأمة.

الثالث: تقوية عوامل الوحدة والتواصل بين المسلمين أفراداً ومؤسسات وجماعات وجمعيات.

الرابع: إدراك أن الاجتهاد هو في مناط تحقيق الاعتصام بحبل الله وليس التفرق فيه وإلاّ يكون الاجتهاد سعيا وراء مصلحة ذاتية أوحزبية أو أسرية أو قبلية أو بغرض التشفي من أشخاص وأطراف أخرى.

الخامس: إدراك أنه كما أن الالتزام والاهتمام بأصول وقواعد الشريعة عامل هام في جمع الكلمة فإنه يجب الإدراك أيضاً أن تضخيم الفروع والتي تحتل مساحة أكبر في الاختلاف عامل هام أيضاً في تنمية عوامل الفرقة.

السادس: نبذ الخلافات القائمة بين المسلمين، وتقليص وتجفيف منابع وعوامل الفرقة والتفريق فيما بينهم والأنانية الممقوتة التي تغلب مصالحها على مصالح الأمة وتقوية العوامل الروحية في هذا المجال والتركيز في ذلك على تحقيق المصالح العامة للمسلمين في الحياة والحول على الأجر والثواب في الحياة الأخرى؛ ذلك أن الغفلة عن الحياة الأخرى والجزاء الأكبر فيها والحياة الخالدة هناك تجعل الإنسان يقتصر في رؤيته على المصالح الدنيوية كما يراها، وهي بلا شك رؤية قاصرة لا تتفق مع النظرة الإسلامية الشاملة والإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان الستة.

السابع: إدراك أن ما نلحظه من تفرق واختلاف مرده الى نفوذ بعض عوامل التفكك بين طبقات فئات المجتمع الإسلامي والتي منها:

١ – العصبية الإقليمية أو القبلية والعشائرية.

٢– التفاوت الطبقي الحاد بين طبقة فاحشة الثراء وطبقة تعيش تحت خط الفقر.

٣– المطامع الأجنبية في ثروات المسلمين.

٤– التبشير ببعض المبادئ والأفكار والمذاهب الغريبة على البيئة الإسلامية.

٥– الجهود المبذولة لمحاربة الدين الإسلامي واتهامه بالإرهاب وعدم التسامح.

وكل هذه أمور تحتاج الى جهود مضنية في البحث والدراسة والمتابعة والمعالجة ولا يمكن أن يكون الصمت والجمود بعض عواملها لأنها ربما كانت من أكثر أسباب وجودها وبالتالي فلا يكون ذلك الا من خلال الحوار الهادئ الواعي المتزن ومن خلال التجديد ونشر ثقافته الذي يقوم على ثوابت الأمة ومتطلبات التغيير في النفس والمجتمع، وهي أمور في غاية الاهمية كيما تأخذ الأمة مكانتها في عالم متحرك لا يعرف الصمت والجمود وأمام متغيرات لا تقف عند حدود.

والله الموفق الهادي الى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم

الهوامش:

١ - النحل/ ١٢٥.
٢ - النحل/ ٤٤.
٣ - المائدة/ ٦٧.
٤ - الممتحنة/ ٨.
٥ - آل عمران/ ٦٤.
٦ - التوبة/ ٧١.
٧ - آل عمران/ ١١٠.
٨ - الفتح/ ٢٩.
٩ - المائدة/ ٥٤.
١٠ - المنافقون/ ٨.
١١ - الانفال/ ٦٠.
١٢ - الشورى/ ٣٧ -- ٣٨ - ٣٩.
١٣ - الفرقان/ ٧٢ - ٧٣.
١٤ - الاحزاب/ ٣٦.
١٥ - الشورى/ ٤٧ - ٤٨.
١٦ - الروم/ ٧.
١٧ - الانفال/ ٢٤ - ٢٥.
١٨ - يونس/ ٩٩.
١٩ - هود/ ١١٨.
٢٠ - الأنبياء/ ١٠٧.
٢١ - التوبة/ ١٢٨.
٢٢ - الشورى/ ٣٠.
٢٣ - الانفال/ ٤٥ - ٤٦.
٢٤ - آل عمران/ ١٠٥.
٢٥ - الشورى/ ١٠.
٢٦ - الشورى/ ١٣.
٢٧ - الشورى/ ١٤.
٢٨ - الشورى/ ١٥.